بسم الله الرحمن الرحيم

«رسائل إلى الواقفين على أعتاب المناظرات ومراكز الحوار»

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وبعد..

لا شك أن السلف فاقوا الخلف علماً وديناً من وجوه كثيرة لا تحصى، فتَتَبُّعُ آثارِهم وسلوك طريقهم في فهم الدين والعمل به أمر واجب محتوم لا يفارق المؤمن في كل أحواله، ومن أخص هذه الأحوال: عند حلول الشبهة وتَسَلُّطِ الفتنة وبروز شياطين الإنس والجن مزخرفين القول لِيَصْرِفُوا إليهم كلَّ مُصغٍ إليهم ومفتون بهم، أعاذنا اللهُ والمسلمين من شر أقوالهم.

ولما كانت تلك منزلة السلف عند المؤمن السنّي السّلَفي، فإنه لا يخفى على كلِّ من تَتَبّع آثارهم أنهم معرضون عن مواجهة الشبهات بالجدال والمهارات في الدين، فضلا عن المناظرات العلنية والخصومات الدينية، فضلا عن تنشئة الشباب عليها وتعليمهم لها، كما يعرف ذلك من له أدنى اطلاع على كتب الآثار كالشريعة للآجري والسنة للخلال وغيرها.

وقد فُتن الناس في هذه الأزمان المتأخرة بإقامة مراكز لتعليم الحوار والمناظرة نُصْرَةً للحقَّ -في ظنّهم- مُواجِهِين -في زعمهم- الإلحاد والشبهات.

وهذا الاندفاع منهم سَبَبُهُ: أنهم ظنوا أنَّ الحق يُنصر بالمجادلة والمخاصمة انطلاقا من معادلةٍ ذهنية صحيحة في نفسها خاطئة في تنزيلها: "الحق واضحٌ تقبله النفوس، والباطل زائفٌ تنفر منه القلوب".

وهذه مغالطة مكشوفة! فإن هذا هو صفة الحق في معدنة الصافي لا صفته في مجرى الجدال وسُوقِ

الخصام .

فاذا زُجَّ بالحق مع الباطل على طاولة واحدة، فهناك تتصاعد أدخنة كثيفة تحجب الرؤية، وتضيع معها البوصلة، كالجبل الذي تراه بعينك، فإن حال بينك وبينه غَتَرٌ اختفى لا لنقص في الجبل، ولكن لتلك الحُجُب.

وسَبَبُ هذه المغالَطَة عندهم: هو جهلهم بخمسة أشياء: (جهل بطبيعة الحق وجهل بطبيعة الباطل وجهل بطبيعة النفس البشرية وجهل بطبيعة الشبهات الكلامية وجهل بطبيعة القلوب).

وفي هذا المقال أرسل رسائل إلى كلّ القائمين على تلك المراكز والشباب الملتحقين بها، إنكم تفتحون أبوابا أغلقها سلفكم الصالح **«فهم عن علم تام وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشفها كانوا أقوى، وعلى خوضها أجدر وأحرى، فقد تكلموا في الحق بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم مقصّر وما فوقهم محسّر»** كما قاله عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى.

أظننتم أن الحق يُنْصَرُ بالمجادلة والمخاصمة!؟

وأن عرض الشبهات وكيفية ردها وتنشئة الصغار على ذلك وبناء المراكز لها وتأليف الكتب فيها = هو طريق النصر وظهور الحق وزهوق الباطل؟!

هذه لعمري شبهة إبليسية، وهي والله لا ترُدُّ باطلاً بل تزيده، ولا تورِث يقيناً بل تُبِيدُه.

فاليقين أنوار ربانية تنبع من القرآن والسنن النبوية، لا تُولَد في مختبراتِ الجدل الكلامِية.

فمن وقف على سطح الظاهر قال بقولكم، ومن غاص في عمق الحقائق قال بقول السلف، ولذلك

لن يسبق أحدٌ السلف لا بفهم الدين ولا بفهم النفوس.

وهذه ليست بدعا ولا مستغربة؛ فإن هذه تصورات وفهوم، وهي هِبات من الله، ونور يقذفه في قلوب عباده الأتقياء هدايا وعطايا جزاءً وفاقا.

والله يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا ﴾ الأنفال [٢٩] فتدبّر هذه الآية لتعلم: أن الفرقان وهو النور واليقين الذي يقذفه الله في قلبك هو نتيحة تقواك وإيمانك لا بحثك وكلامك.

فلما امتلأت قلوبُ السلفِ بالإيمان امتلأتْ عقولُـهم بالفُهُوم وحُسْنُ التّصَوُّر، ونحن لما فسدت قلوبنا بالغفلة والبعد فسدت تصوُّراتُنا وعقولُنا، فَتَقَدّمْنا بين أيديهم واعتَرَضْنَا على كلامهم وفهمهم، فالسلف أرادوا إسلاما فطريا يقينيا لا إسلاما كلاميا جدليا.

ولست بصدد ذكر هذه الآثار الدالة على إعراض السلف عن الخصومات والجدال في الدين لأنها متناولة لمن طلبها، ولكن أردتُ في هذا المقال: بيان عمق علم السلف في هذا المسلك الذي سلكوه في مواجهة الشبهات، وأنهم سلكوه عن فهم راسخ وإدراك واسع وتصوّر عميق لحقيقة خمسة أشياء: طبيعة **الحق** وطبيعة **الباطل** وطبيعة **النفس البشرية** وطبيعة **الشبهة** وطبيعة **القلب**.

وفي هذه الورقات أُوقِفُك أيها القارئ الـمُوفّق على حقيقة هذه الخمسة عند السلف.

أولا: طبيعة الحق والباطل

كلامنا ليس وصفاً ولا تَطَرُّقاً للحق في نفسه ومعدنِه الصافي، وإنما تطرُّقٌ للحقِّ حين تُثَارُ الشُّبُهات وتُعْرَض على القلوب، فمِن حيثُ طبيعةُ الحقِّ، فالحق بناء هندسي: يَشُدُّ بعضُه بعضاً ويُبْني بَعْضُه على بعض، له قواعدُه ومقدِّماتُه وفروعُه.

فردُّ الشبهة يحتاج إلى تَوْطِئة معرفية، وحُسْنُ تصوّر لقواعد التأسيس الأولى؛ ليتجلى نور الحق وتندحض شبهاته، فمن لم يكن على علم مُسْبَق، ودِرَايَةٍ مُؤصّلة وحُسْنُ تصوّرٍ فلن تندفع الشبهات، وسوف تعلق في القلب.

فتثبيت الحق حين ورود الشبهة يتطلب رؤيةً "بانورامية" للبناء الهندسي؛ استنطاقاً لأساسات البنيان السابقة وقواعده.

ولا يشك عاقل أن أغلب المسلمين اليوم لا علم لهم بذلك، بل حتى أغلب الدراسين معرفتهم بذلك سطحية، والاستيعاب السطحي يقف عاجزا عن ترميم التَّصدُّعِ الداخلي.

وأما الباطل فهو كاسمه، أشبه ما يكون بالمادة الهلامية لا قِوام له ولا قواعد ولا بناء، يتشكل بحسب الهوى، فبينما يحتاج الحق لِزَمَنٍ لِيُشيَّدَ بناؤُه لا يحتاج الباطل إلا لثوانٍ ليتفشى، فبمجرّد أن يلقى على مسامع الناس تَتَشرّبُه قلوبهم.

فقوة الحق المعروضة مع ضعف تصوُّرِ قواعدِه ومقدماتِه لدى المتلقّي يجعل الشبهة في القلب أقوى وأسرع، وهي القاعدة التي قرّرَها ابن تيمية بقوله: «الشبه خطافة والقلوب ضعيفة».

فمن فهم أن اليقين حالة (قلبية) لا نتيجة (عقلية) عَلِم لماذا آثرَ السلفُ الإعراض لا الاعتراض، كما قال أبو قلابة رحمه الله: «لا تجادلوهم ولا تجالسوهم».

وأيضاً: مما علمه السلف وجهله الخلف في طبيعة الحق والباطل: أن اختراق جزء من الحق مُضِرٌّ بالحق كلِّه، فالحق منظومة متكاملة إذا سقطت منها قاعدة اختل البناء كله.

وأما الباطل فهو شظايا متفرّقة لا يتصل بعضها ببعض، ولا يَضِيرُه التناقض، ولا يعيبه التهافت؛

فهدفه التشويش والتلبيس، ولذلك تجد أصحابَه لا يكلّون ولا يملّون من الجدل والنقاش؛ لأنهم يربحون المعركة بمجرد إحداث خدش في جدار اليقين.

والخدش في جدار اليقين مهما قل يجعل القلب في نزيف دائم يتسرب منه الإيمان، ويتسلل الباطل ليحل مكانه؛ فإن القلب بطبيعته وعاء مملوء لا يخرج منه شيء إلا دخل ضده، فاحذر فكم من خدشٍ كان هو بداية النهاية.

وكل ثقب في صفاء الفطرة هو بذرة شك مؤجلة، تنمو جذورها تحت أصول اليقين وأنت لا تشعر، وتُسْقَى بماءِ الجدل والمناظرات فتكبر وتثمر ثم تؤتي حصادها وخراجها في يومٍ اللهُ به عليم.

فبعضهم يكون حصاده يوم احتضاره وتفلُّت نفسِه، فيوافق خروج روحه خروج إيمانه ولا حول ولا قوة إلا بالله، فاحذر على نفسك الثقوب فكم من ثُقْبٍ أغرق سفينة.

وهذا يكشف لك سر القصص العجيبة، وكما قيل: إذا عرف السبب بطل العجب، كيف يكون الرجلُ عالماً فقيهاً حافظاً للقرآن والسنن ثم يُصبِحُ ملحدا! فضلا عن العامة وطلبة العلم، ويقول ابن تيمية: «أكثر الناس شكا عند الموت أهل الكلام» فهذا الذي خافه علينا سلفنا الصالح، وذلك -واللهِ- لعمق فهمهم وكمال إيمانهم.

وهذا الذي خافه سفيان الثوري على قلبه حين بكى، فقيل له: أتبكي من ذنوبك؟ فقال: «والله لذنوبي أهون عليّ من هذا التراب وإنما أخشى أن أسلب الإيمان عند الموت»

وأما أهل الباطل فالخدش فيهم لا يضرُّهم؛ لأنهم لا يقينَ عندهم أصلاً ولا قواعدَ ولا بناء.

فلما علم السلف حقيقة الضرر في مثل هذه المناظرات الجدلية العلنية وأن نسبة الإيمان التي أُزهقت

في قلب مؤمن صالح نقي الباطن لا توازيها ظهور الحجة على المبطل؛ حَذّروا أشد التحذير حتى قال اللالكائي في (شرح السنة): «ما جني على الإسلام جناية أعظم من مناظرة المبتدعة».

وأيضا: فظهور الحجة لا يعني قهر الباطل ضرورة وإنما يعني عجز المبطل عن إظهار حجته؛ لأنّ حتى مَنْ يحبُّك ويؤيدُّك قد يقول: ربما لو كان هناك آخر أقوى حجة من هذا لظهرتْ حجتُه!

وذلك أن هذه المناظرات: إنما هي صراع أدوات من منطق وبيان ولسان، فالانتصار هنا لا يعدُو كونه كَسْبَ جولةٍ عقلية والعقول متفاوتة، ولذلك فظهور الحجة الجَدَلِيّة -إن حصل- لا يُورِثُ يقينا لا في قلب صاحبها ولا قلوب المتلقّين وإنما يورث إعجاباً وتصفيقاً.

وأيضا: فظهور الحجة لا يعني السلامة من العطب، فقد تنتصر بحجتك وتخرج وأنت مثخنٌ بالجروح، فتخونُك هزيمةٌ تَفُوقُ عُلُوّ حُجّتِك؛ لأنه لا نسبة ولا تناسب بين ما تخسره وبين ما يخسره هو، فانشطار جوهرة الإيمان يفوق تحطيم خزف الباطل، فما فائدة حجة تنتصر وقلوب تنكسر!

فالحق كائن "حي حساس ذو روح" يؤثّر فيه أدنى شيء، والباطل كائن "ميت زاهق" كما وصفه الله ﴿ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ الإسراء [٨١] والميّت لا يضرُّه شيء، وكما قيل: فما لـجرحٍ بميت إيلام.

وكل هذا وغيرِه جعل السلف يهربون من الجدل والخصام، وهذا من دقيق علمهم وعظيم فهمهم؛ لأنهم علموا أن الأمر بهذه الصورة كلَّه فساد، والمنتصر فيه مهزوم، وما فيه من مصلحة أو انتصار فهو في السالب أمام هذه المفاسد. وتعلم أيضا: لماذا قالوا كلمتهم المشهورة: السلامة لا يعدلها شيء.

ولا بد أن تعلم أن الباطل ينتصر بأدنى جهد، فهو لا يحتاج أن يُقْنِعَكَ بروايته بل يكفيه أن يُشَكِّكَ في روايتك، بخلاف الحق فلا ينتصر حتى تَعْتَقِدَه وتَتَيَقّنَه، فغرض الباطل التلبيس وهو يتحقق بأقل جهد،

وغرض الحق التبيين وهو يحتاج لأعلى جهد، فلا نسبة بين نصرٍ يتحقق بكلمة وبين نصرٍ يتطلب محاضرة، فالباطل كالداء أثره عاجل والحق كالدواء أثره آجل.

فانظر إلى البون الشاسع في عدم التكافؤ حين التطاحن لتعلم أن السلف لم يشددوا في ذلك عبثا.

ثانيا: طبيعة النفوس والشبهات

وأما من حيث **طبيعة النفوس** البشرية فكما قررها ابن تيمية رحمه الله يقول: «الأصل في النفوس الظلم والجهل حتى المسلمين» لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ الأحزاب [٧٢، ٧٣]

هذا هو الأصل في جبلة الإنسان، والظلم والجهل هما المغناطيس الجاذب لكل شاذ ومريب، وهذا سر حب النفوس للشُّبه وتعلقها بها.

والنفوس مليئة بالهوى فلذلك ثقل الحق عليها؛ لأنه يخالف هواها، وخف الباطل عليها؛ لأنه يحاكيها ويجاريها، ولذا تسبق الشبهة إلى المسامع لأنها تخاطب خفة الهوى.

ويقول الجنيد: «الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة»

يقول ابن القيم شارحا هذا: «لأن المعارضات والواردات التي ترد على الصادق لا ترد على الكاذب المرائي فالشياطين لا تعارضهم كما تعارض الصادقين»

فإذا كان هذا حال الصادقين من تسلط الشياطين عليهم فكيف بمن هو دونهم؟!

فكيف إذا أصبح الإنسان عونا للشياطين على نفسه ونفوس إخوانه في تخوض دهاليز الشكوك تحت لباس الجدل والعقل ونصرة الدين فيظهر من ذلك شر تتقاصر شرور الشياطين عنه.

فلما فهم السلف الفرق بين الحق والشبهة في مقام التلقي وعند الحجاج أغلقوا الباب كمالاً في العلم والنصح لا عجزا في البيان والكلام.

وأما من حيث **طبيعة الشبهات** فلا يختلف اثنان بأن الشبهات عظيمة الأثر على القلوب، شديدة السطوة على النفوس وقد قال ابن تيمية رحمه الله «القلوب ضعيفة والشبهة خطافة» وهذا التوصيف من شيخ الإسلام يكشف عن عدم التكافؤ في مقام الجدل، فالشبهة في الحقيقة أقرب إلى النفوس البشرية من الحق إليها.

ثالثا: طبيعة القلوب

وأما من حيث **طبيعة القلوب** فهي ضعيفة في أصل خلقتها، كثيرة التقلب والاضطراب، هشة الحصانة، سهلة الاختراق، وكما قيل: ما سُمّي القلبُ إلا من تَقَلُّبِه. فاحذر على قلبك من قّلْبٍ وتحويل، وقد قرر ابن تيمية ذلك في مقولته المتقدِّمة.

فالشبهة تنتصر لا لأنها أقوى من الحق بل لأن القلب أضعف.

وهذا أمر مشاهدٌ عيانا في كل زمان ومكان، ليس فقط في جماهير الناس بل في خاصتهم من أهل العلم والفقه، وما عبد الله القصيمي عنكم ببعيد.

ومن هذا كله يظهر عمق علم السلف، فإنهم كانوا أعلم وأحكم حين أغلقوا هذا الباب، فهم تصوروا طبيعة **الحق** وطبيعة **الباطل** وطبيعة **النفس البشرية** وطبيعة **الشبهة** وطبيعة **القلب**، فكان حكمهم عن علم تام وفهم راسخ فصدقت عليهم القاعدة (الحكم على الشيء فرع عن تصوره).

ونحن لما قَصُر نظرنا على جهة واحدة من التصور (نصرة الحق) صدر حكم جائر ضعيف أشبه

بحقل ألغام.

ولقد رحم الله سواد هذه الأمة بأن جعل إسلامهم فطريا بسيطا بعيدا عن كدر علم الكلام وضجيج الشبهات والردود، ثم جئتم أنتم لتهدموا هذا السد العظيم الذي بناه السلف الصالح وتفتحوا باب الجدل والمنطق الذي هو في حقيقته بذور شك مؤجلة.

فإن أَبْقَى الله على كثير منهم إسلامَه فذلك رحمةٌ من الله بهم، وإلا فإن الأمر كما قال ابن تيمية رحمه الله: «كثير من الناس لو شُكِّكُوا في دينهم لَشَكُّوا» وهل هذه المراكز إلا شكوك متنكرة في وهم الحصانة العقلانية؟.

فمساحة الخطر من هذه المراكز هي تلك التي يظن فيها المرء أنه استغنى "بذكائه الشخصي" عن "افتقاره الفطري". والمعافاة كل المعافاة أن يعافيك الله من النظر في هذه الخزايا ويطهر قلبك منها.

يقول ابن تيمية: «هؤلاء إن عافاهم الله من المحنة وماتوا دخلوا الجنة وإن ابتلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين»

ومن ينشئ المراكز ليعلم الناس الجدل صغارهم وكبارهم ويقيم المناظرات العلنية فهذا لا شك أنه قد أورد على قلوبهم الشبهات التي تريبهم ولو كان غير قاصد، فالسلف الصالح لم يهجروا الجدل لقصور في البيان، بل لفراسة في النفوس فآثروا السلامة التي لا يعدلها شيء، فكما تغلق المدن أمام أوبئة الفيروسات تغلق القلوب أمام أوبئة الشبهات.

وهذا نبيكم محمد ﷺ أول من أرسى دعائم الإعراض عن الجدل في الإلحاد فقال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته» [رواه

البخاري] فلم يقل النبي ﷺ فليجتهد في إبطال هذه الشبهة بالنظر والحجج العقلية.

فهذا علاج النبي ﷺ : الاستعاذة بالله ثم الانتهاء لا علاج الفلاسفة والمتكلمين، فالعجب ممن يعرض عن الهدي النبوي ويتلقف هدى المتكلمين، ثم لا يسَعُه ذلك حتى يقيم لها المراكز، ويربّي الشباب عليها ثم لا يسَعُه ذلك حتى يُشَرْعِن ذلك ويجعله دينا وحقا!؟ فأي معارضة أصرح من هذه؟!.

والإمام أحمد قد قال في عقيدته التي ذكرها عبدوس: «ولا تتعلم الجدال» فكيف لو علم الإمام أحمد أن أتباعه ومحبيه قد أقاموا مراكز كاملة لتعليم الجدل وإحكامه!؟

ولو كان أحد أحوج لِتعلُّم الجدل نصرةً للدين لكان هو الإمام أحمد، ومع ذلك أعرض عنه تسليما للشرع الحنيف واتباعا للهدْي النبوي، فلم يغيّر ولم يبدّل، ولم يتقدم بين يدي ربِّه بعقل ولا ذوق ولا رأي، فَنَصَر اللهُ به الملة وأقام به السنة.

وكانوا لما يوردون عليه بعض مصطلحات المتكلمين كالجوهر والجسم يقول لهم: «لا أعرف الجسم ولا الجوهر ائتوني بكتاب الله أو سنة رسوله أو آثار الصحابة».

والإمام أحمد لا يعجزه أن يحفظ علم الكلام ويتقنه، فهو الذي حفظ من السنة (ألف ألف) عن ظهر قلب، لكنه علم أن مركزية النصر لا تأتي من براعة المحاور وإتقان الجدل، بل من الاتّباع والتسليم للوحي، فمتى غاب الاتّباع تحت غبار الجدل ساد الوهم، وباتت القلوبُ نهباً لكل غاد ورائح.

وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «ليسألنّكم الناسُ عن كلّ شيء حتى يقولوا: الله خلق كل شيء، فمن خلقه؟ فمن وجد ذلك فليقل آمنت بالله»

فلم يعلمّهم النبي ﷺ الردود العقليّة بل أمرهم أن يعزروا إيمانهم بقولهم: «آمنت بالله» فهذا النبي ﷺ

قد علّمهم وأرشدهم للعلاج، ولم نجد في كلامه ﷺ للجدل والعقل موضعا، وهذا أبو هريرة ﵁ كما في صحيح مسلم يقول: «بينا أنا في المسجد إذ جاءني ناس من الأعراب، فقالوا: يا أبا هريرة، هذا الله، فمن خلق الله؟ قال: فأخذ حصى بكفه فرماهم»

فهل بعد هَدْي النبي ﷺ وصحابته ﵃ والأئمة الأعلام هديٌ؟! فهو أفضل سبيلاً وأقوم طريقاً، وهل هذا إلا مشاقة لطريقهم وتنكب لسبيلهم؟! وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ النساء [١١٥]

وكثير من هؤلاء إنما أرادوا نصرة الدين، لكنهم أخطأوا حينما ظنّوا أن النّصر يقوم سوقه بهذه المناظرات ومدافعة الشبهات، وما علموا أن الله منذ الأزل قد احتجز النصرة لدينه إلا ما كان عن طريقه وسبيل شرعه، فالنصرة بيده يرسلها لمن سلّم له وخضع واتبع ولو كان أضعف بيانا وأقل كلاما، وموسى ﵇ كان أكثر الأنبياء أتباعاً بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، وكان فرعون يقول عنه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ الزخرف [٥٢].

فالنصر والفوز يا إخوة ليس بطلاقة اللسان ولا حصافة العقل، بل شيء مُعلّق بأستار الاتّباع والتسليم، فمن تعلق بهذه الأستار تجَلَّله النصر وتوَّجَهُ الفوز ونجا.

ولذلك لما ذكر الله مشاركة الملائكة في القتال، وأي شيء أعظم من مشاركة الملائكة؟! بيّن اللهُ أنه ليس إلا بشرى فقط، وأما النصر فلا، فقد قال بعد أن ذكر مشاركتهم ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ آل عمران [١٢٦]

فمن فهم فلسفة النَّصرِ في الشريعة ارتاح من عَناء الجدل والكلام، واستقرت روحه وهدأت نفسه، وعلم أنّ النّصر تنسج خيوطه من أسلاك التسليم والانقياد والاتّباع، فنصرة الدين تأتي من عَرْضِه وإظهار

جَمَالِه لا من تَتَبُّع قبائحِ خصومِه ومجادلتِهم.

أَظْهِرُوا الحق للناس يزهق الباطل، فالشمس إذا أشرقت لم تحتج إلى برهان، وأميتوا الشبهات بتركها والإعراض عنها، فالشبهة كائن طفيلي يتغذى على مائدة الحوار، وكلما زاد الجدل زادت الشبهة جسامة في النفوس وضخامة في القلوب.

والله قد ذكر أن الباطل زهوقا كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ الإسراء [٨١] فهو ميّت حتى يَدْخُلَ غُرَفَ الحوارات الفكرية، فتُنْفَخُ فيه الرّوحُ، فيَنْبَعِث من مَرْقَدِه لِيَعْبَثَ في قلوب العامة.

فالنصر الحقيقي هو أن يموت العامي على إيمان العجائز مسلما مطمئنا، لا أن يموت محاورا مخاصما قلقا ينتظر دحض شبهة، فإسلام هؤلاء معلق على مِشْرَطٍ حادٍّ، وصدق ابن تيمية حين قال «أكثر الناس شكا عند الموت أصحاب الكلام».

فمن لم يحمه الله ببرد الانقياد والتسليم لم يحمه الجدل بحرارة الردود والتقسيم.

وكان الإمام أحمد يمدح الشافعي ويقول لبعض طلابه: «تدري أعظم خصلة في الشافعي ما هي؟ إنه لا يشتهي الكلام»

فلا تفتروا على مذهب السلف، فتربية الأجيال على الجدال والحجاج العقلي يتماشى مع مذاهب المبتدعة، وأما مذهب السلف فلا، فاتخاذ ذلك مذهبا ونهجا مصيبة، ونسبة ذلك للسلف مصيبة أخرى هي أعظم من الأولى فارحموا أنفسكم ولا تجمعوا عليها مصيبتين.

وهذه الحوارات المعاصرة حولت الدين من منهج حياة إلى مادة للجدل، فلم تشف عليلا ولم ترو غليلا، بل الشفاء كل الشفاء في القرآن والسنة وآثار الصحابة ﷺ والعلماء ففيها النور والهدى والبركة.

والله سبحانه لما وصف كتابه قال: ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ يونس [٥٧] فالشفاء في القرآن والسنة لا في حجاج المتكلمين الفلاسفة.

وقد ورد في الصحيح أن الصحابة ﷺ أتوا إلى النبي ﷺ يشتكون مما يجدونه في صدورهم ويقولون «لئِن يخرّ الواحدُ من السماء أحبَّ إليه من أن يتحدث به»

فإذا كان رعيل النبوة وأطهر القلوب زكاء قد ضجوا من هواجس عارضة لم يستدعوها ولم يستثيروها، ورأوا أن السقوط من شاهق السماء أهون من البوح بها، فكيف بمن يقتحم مختبرات الشكوك بقدميه ويستجلب شبهات الزنادقة بملء فيه.

فخطة الهروب التي رسمها الصحابة ﷺ من الوساوس بالاستعاذة والانتهاء تكشف عن عمق فقه الحماية لدى السلف، أما هؤلاء فقد حولوا الوسوسة من عارِضٍ مَرَضِيٍّ إلى منهج جَدَلِي، في حين كان الأوائل يرون الارتطام بالأرض من حَالِقٍ أبرد على قلوبهم من الدوران في مداره.

فإذا كانت هذه الوساوس أخافت الصحابة ﷺ خوفا عظيما مع مدافعتهم لها؛ فما يقول هؤلاء الذين يستضيفونها ويعطونها حق اللجوء في عقولهم وقلوبهم ليناقشوها؟!

فما هذه الاستهانة إلا خديعة الاعتداد بالذات، ووهم الحصانة العقلانية الذي ابتدعوه حتى أوهم المعاصرين بأنهم أقدر على الثبات من تلاميذ النبوة.

رابعا: جواب اعتراض: الجدال الواقع من بعض العلماء مع المخالفين

وأمّا ما حدث من جدال لدى بعض أهل العلم فهي حوادث عارضة نادرة لم يُؤَسَّس لها، ودخلوها مضطرين مع كرههم لها، فلعمري إن هذا القياس من أفسد الأقيسة وأبطلها وكما يقول ابن حزم لبعض أقيسة الفقهاء: «لعمري إن القياس كله باطل ولو كان منه شيء حق لكان هذا منه عين الباطل»

فالسلف فرّوا من الجدل حتى أدركهم اضطرارا، وهؤلاء استشرفوا الجدل حتى أنشأوا له المراكز وألفوا فيه الكتب، والسلف كان الجدل عندهم عملية جراحية لا تجرى إلا في غُرَفِ العمليات، وبيد كبار الأطباء، وأما هؤلاء فوضعوا المشارِط بيد الشباب وأحداث الأسنان، بل بعضهم من العامة فما هي إلا مجزرة إيمانية باسم الطب.

فاستدعاء الحوادث النادرة لتأصيل واقع مستمر هو سقوط منطقي واختلال منهجي، فالحقائق الكلية لا تنقض بالجزئيات العارضة، فما بدر منهم هو قدر مصلحي لا يقاس عليه في بناء المناهج التربوية، فالسلف جعلوه باب طوارئ والخَلَف جعلوه باباً رئيسيا يدخل منه من هب ودب، فهل يقاس الدواء على الداء؟!

فجدالُ السلف للضرورة مع الكره والذم له كان دواءً ناجعاَ، وجدالُ هؤلاء مع التربية عليه وإنشاء المراكز له كان داء قاتلا. وجميع أقيستهم كهذا القياس الفاسد تراه لأول وهلة فتراه جميلا وعند التفتيش يبين فساده.

فالجدال والخصومة كالإمارة من دخلها كارِهاً أُعِين عليها، ومن دخلها مُستشرفاً وُكِلَ إليها، وأما الاتكاءُ على انتصار جدلي أو إسلام فَرْدٍ بسببه؛ فهو خديعة مشهد، فالحق الذي يبنى على محض

الـمُحاججة العقلية هو بناء رملي الأساس ينهار أمام خصم هو ألحن حجة وأحصف عقلا.

فمن اعتقد شيئا لجدل إنسان رجع عنه لجدل إنسان آخر، وكما قال النبي ﷺ: «لعل بعضكم ألحن بحجته من الآخر» وهذا إعلان نبوي صريح بأن قوة البيان ليست ميزانا للحق بل هي قدرة بشرية.

فالعقول لا تنضبط، والشبهات لا تنتهي، فمن هو منتصرٌ اليومَ بعقله؛ غدا هو مهزوم بعقل غيره. فهل يُتْرَكُ الناسُ في أرجوحَةٍ في أعظم أصولهم وأجلّها؟! فهذا والله انتحار جمعي وانسلاخ كلي.

وإنما يبقى الناس على السلامة ويُنْأَى بهم عن دهاليز الشبهات، فالشبهات كالخلايا السرطانية؛ الجدلُ لا يَقْتُلُها ولا يُنْهِيهَا بل يُهَيّجُها ويُبْقِيها.

فالسلف لما كانوا على دين متين وعلم عظيم بهذا كله أغلقوا الباب غلقا موصدا، ولما جهلنا ذلك لنقص علمنا وديننا فتحناه ورجونا خيره.!

والحمد لله رب العالمين

****

وكتبه د. حسن صنيدح العجمي

الثلاثاء، ٢٥ رجب، ١٤٤٧ هـ الموافق:١٣/٠١/٢٠٢٦ م